النصوص

(١)

من شعر الغزل

قال ابن زيدون

وَدَّعَ الحُسْنَ مُجِبٌّ ودَّعَكْ ∴ ضائعٌ من عهده ما استودعكْ

يَقْرعُ السِّنَّ على أن لم يكن ∴ زاد في تلك الخُطا إذ شيَّعكْ

يا أخا البدر سناءً وسناً ∴ حفظ اللهُ زماناً أطلعكْ

إن يَطُلْ بعدك ليلي فلكمْ ∴ بتُّ أشكو قِصَرَ الليلِ معكْ

• • •

وقال أيضاً :

يا ليلُ طُلْ لا أشتهي إلا بَوصْلٍ قِصَرَكْ

لو باتَ عندي قمري ما بتُّ أرعى قمَرَكْ

يا ليلُ خَبِّرْ أنني ألتَذُّ عنه خبرَكْ

باللهِ قُل لي هَلْ وَفى فقال لا بل غدركْ

وقال محمد بن اليسع فى صديق لكنها خرجت عن قصده إلى لون رفيع من الشعر الغنائى الغزلي :

قال لى الورد وقد لا حظته فى رَوْضَتَيْهِ

وهو قد أينع طيبا جمع الحسنَ لَدَيْهِ

أين مولاى الذى قد كنت تهدينى إليه

قلتُ غابَ العامَ فايأس أن تُرى بين يَدَيْهِ

فبدا يذبلُ حتى ظهر الحُزْنُ عَلَيْهِ

ولمحمد بن البَيْنِ البَطَلْيَوْسي أبيات تقرن الحرب بالغزل :

غَـصَبوا الـصباح فقـنَّعوه خـدودا ∴ واسْـتَنْهَبوا قُـضُبَ الأراكِ قـدودا

ورأوا حـصى اليـاقوت دون محلـهم ∴ فتقلَّـدوا شُـهُبَ النجـوم عقـودا

واسـتودَعُوا حَـدَقَ المهـا أجفـانهم ∴ فـسبوا بهـن ضـراغماً وأسـودا

لم يكفهـم حمـلُ الأسِـنَّةِ والظُّبـى ∴ حتـى اسـتعاروا أعينـاً وقـدودا

وتـضافروا بـضفائرٍ أبـدوا لنـا ∴ ضـوءَ الهـار بليْلِهـا معقـودا

صـاغوا الثغـور مـن الأقـاحي بَيْنَهَـا ∴ مـاءُ الحيـاة لـو اغتـدى مَـوْرُودا

-٢-

من شعر الزهد

-أبو إسحاق الإلبيرى وحوار مع الدنيا

١ مَـن لَـيسَ بالبـاكي ولا المُتَبـاكي ... لِقَبـيحِ مـا يـأتى فلـيس بـزاك

٢ نـادتْ بـيَ الـدُّنيا فقلْـتُ لَهـا : اقْـصِري ... مـا عُـدَّ في الأكيـاس مَـن لَبَّـاك

٣ ولَمـا صَـفا عِنْـدَ الإلـهِ ولا دَنـا ... منـهُ امْـرؤٌ صـافاك أو دانـاك

٤ مـا زِلْـتِ خـادِعَتي بِبَـرْقٍ خُلَّـبٍ ... ولـو اهتـديت لمـا انْخَـدَعْتُ لِـذاك

٥ قالَـتْ أغَـرُّكَ مـن جناحِـك طولُـهُ ... وكَـأنْ بـهِ قـد قـص فـي أشـراكي

٦ ثُـما لله مـا في الأرض مَوضِـعُ راحَـةٍ ... إلا وقـد نُـصِبَتْ عَلَيـه شِـباكي

٧ طِـرْ كَيـفَ شِـئت فأنـتَ فيهـا واقـعٌ ... عـان بهـا لا يُرتَجَـى لِفَكـاكِ

٨ مَـنْ كـانَ يَـصرَعُ قِرنـهُ في مَعـرَكٍ ... فَعَلـيَّ صَـرعَتُه بغَـيرِ عِـراكِ

٩ مـا أعـرِفُ العَـضبَ الـصَّقِيلَ ولا القَنـا ... ولقـد بَطَـشتَ بـذي الـسِّلاح الـشَّاكي

١٠ كَـــم ضَـــيغَمٍ عَفَّرتُـــه بعَرينِـــهِ ... ولكَـــم فَتكْـــتُ بأفتَـــك الفُتَّـــاكِ

١١ فأجَبتُهـــا مُتعجِّبـــاً مِـــن غَـــدرِها ... أجَزَيـــتِ بالبغـــضاءِ مَـــن يهـــواكِ؟

١٢ لأجَلْـــتُ عَـــيني في بَنِيـــك فكلُّهـــم ... أســـراكِ أو جَرحـــاك أو صَـــرعاكِ

١٣ لَـــو قارَضـــوكِ علـــى صَـــنيعكِ فـــيهمُ ... قَطَعـــوا مَـــدى أعمـــارِهِم بقِـــلاكِ

١٤ طَمـــسَت عُقلـــولُهُم ونُـــورُ قُلـــوبهم ... فتهـــافَتوا حِرصـــا علـــى حَلـــواكِ

١٥ فَكـــأنَّهُم مثـــلُ الـــذُّبابِ تَـــساقطتْ ... فـــي الأري حَتَّـــى استُؤصِـــلوا بهـــلاكِ

١٦ لا كُنـــتِ مِـــن أُمٍّ لَنـــا أكَّالـــةٍ ... بعـــدَ الـــولادَةِ، مـــا أقـــلَّ حَيـــاكِ!

١٧ ولقَـــد عَهِـــدنا الأُمَّ تَلطُـــفُ بابنِهـــا ... عَطفـــاً علَيـــهِ وأنـــتِ مـــا أقـــساكِ

١٨ مـــا فَـــوقَ ظهـــرِكِ قـــاطِنٌ أو ظـــاعِنٌ ... إلا سَيُهـــشَمُ فـــي ثِقـــال رَحـــاكِ

١٩ أنـــتِ الـــسرابُ وأنـــت داءٌ كـــامِنٌ ... بـــينَ الـــضُّلوعِ فَمـــا أعَـــزَّ دواكِ!

٢٠ يُعـــصَى الإلَـــهُ إذا أُطِعـــتِ وطـــاعَتي ... لله رَبِّـــي أن أشُـــقَّ عَـــصاكِ

٢١ فَـــرضٌ علينـــا برُّنـــا أُمّاتِنـــا ... وعُقـــوقُهنَّ مُحَـــرَّمٌ إلاكِ

٢٢ مـــا إن يَـــدومُ الفقـــرُ فيـــكِ ولا الغِنـــى ... ســـيَّان فَقْـــرُكِ عِنـــدَنا وغِنـــاكِ

٢٣ أيـــنَ الجَبـــابرة الأُلى وَرياشَـــهُمْ ... قـــد باشَـــروا بَعـــدَ الْحَريـــر ثَـــراكِ!

٢٤ وَلَطالَمـــا رُدُّوا بأرديـــة البَهـــا ... فَتَعوَّضُـــوا مِنهـــا رداءَ رداكِ

٢٥ كانـــت وُجـــوهُهُمُ كأقمـــارِ الـــدُّجا ... فَغَـــدَتْ مُـــسجَّاةً بثَـــوْبِ دُجـــاكِ

٢٦ وعَنَـــت لقَيُّـــومِ الـــسَّماواتِ العُـــلا ... رَبِّ الجميـــعِ، وقَـــاهِرِ الأمـــلاكِ

٢٧ وجَـــلال ربِّـــي لـــو نَـــصحُ عزائِمـــي ... لزَهِـــدتُ فيـــكِ ولا بتَغَيـــتُ ســـواكِ

٢٨ وأخَـــذت زادي منْـــك مـــن عَمَـــلِ التُّقـــى ... وشَـــدَدتُ إيمـــانى بـــنَقض عُـــراكِ

٢٩ وحَطَطْـــتُ رَحلـــي تحـــتَ ألويـــة الهُـــدى ... ولَمـــا رآنـــى الله تَحـــتَ لـــواكِ

٣٠ مَهـلا عَلَيـك فَـسَوف يَلحقُـك الفَنـا ... فَتُـرَيْ بـلا أرضٍ ولا أفـلاكِ

٣١ ويُعيـدنا رَبٌّ أمـاتَ جَميعَنـا ... ليَكـونَ يُرْضـي غَيْـرَ مَـنْ أرضـاكِ

٣٢ والله مـا المحبـوبُ عِنْـدَ مَليكِـهِ ... إلا لبيـبٌ لم يَـزَل يَـشْناكِ

٣٣ هَجـرَ الغَـواني واصِـلا لِعَقائـلِ ... يـضحَكن حُبّـاً للـوليِّ البـاكي

٣٤ إنّـي أرقـتُ لُهـن لا لحمـائم ... تَبكـي الْهَـديلَ علـى غُـصونِ أراكِ

٣٥ لا عـيش يـصفو للملـوك وإنمـا ... تـصفو وتُحمَـدُ عِيـشَةُ النُّـسّاكِ

٣٦ ومِـنَ الإلـهِ علـى الـنّبيِّ صَـلاتُهُ ... عَـددَ النُّجـومِ وعِـدّةَ الأمـلاكِ

– وله قصيدة من ثلاثة وخمسين بيتا يرد لفظ الجلالة "الله" قافية فى كل القصيدة، يقول أبو إسحاق الإلبيرى :

١– يـا أيهـا المُغْتَـرُّ بـالله ... فِـرَّ مِـن الله إلى الله

٢– ولُـذْ بـه واسـأله مـن فـضله ... فقـد نجـا مـن لاذ بـالله

٣– وقـم لـه والليـل فـى جنحـه ... فحبَّـذا مـن قـام لله

٤– واتـلُ مِـنَ الـوَحْى ولـو آيـةً ... تُكْـسى بهـا نـورا مـن الله

٥– وعَفِّـر الوَجـه لَـهُ سـاجدا ... فَعـزَّ وَجـه ذلَّ لله

٦– فَمـا نَعـيمٌ كمُناجاتـهِ ... لقانِـتٍ يُخْلِـصُ لله

٧– وابعُـدْ عَـنِ الـذّنبِ ولا تاتـه ... فَبُعـدُهُ قُـربٌ مِـنَ الله

٨– يـا طالبـاً جاهـا بغـير التقـى ... جَهلـتَ مـا يُـدنى مِـنَ الله

٩– لا جـاه إلاّ جـاه يـوم القـضا ... إذ لَـيْسَ حُكْـمٌ لِـسِوى الله

١٠– وصـارَ مَـنْ يُـسْعَدُ فـى جَنّـةٍ ... عالِيَـة فـى رَحْمَـة الله

١١– يَـسْكنُ فـى الفِـردَوْسِ فـى قُبّـةٍ ... مِـن لؤلُـؤ فـى جـيرَة الله

١٢– ومَـنْ يَكُـن يُقـضى عَلَيـه الـشّقا ... فـى جـاحِمٍ فـى سَـخَط الله

١٣- يُسحَبُ في النّارِ على وَجْهه ... بسابقِ الحُكْمِ من الله

١٤- يا عَجَبا مِنْ موقِنٍ بالجزا ... وهو قليلُ الخوفِ لله

١٥- كأنّه قد جاءَهُ مخبر ... بأمنِهِ مِن قبل الله

١٦- يا رُب جَبّار شديدِ القوى ... أصابَهُ سَهمٌ مِنَ الله

١٧- فأنفذ المقتلَ منهُ وكم ... أصمَتْ وتُصْمي أسهمُ الله

١٨- وغالهُ الدّهرُ ولم تُغنِهِ ... أنصارهُ شَيئاً مِن الله

١٩- وَانْتقل قسْرا مِنْ قُصور إلى الـ ... أجْداثِ واسْتَسلَمَ لله

٢٠- مُرتَهناً فيها بما قد جنى ... يُخشَى عليهِ غَضَبُ الله

٢١- ليسَ لهُ حَول ولا قوة ... الحَولُ والقُوّةُ لله

٢٢-يا صاح سر في الأرض كيما ترى ... ما فوقَها من عبر الله

٢٣- وكَم لنا مِن عِبرةٍ تَحتَها ... في أمَم صارتْ إلى الله

٢٤- مِنْ مَلِكٍ مِنْهُمْ ومِن سوقة ... حَشرهُمُ هَيْنٌ عَلى الله

٢٥-والحظ بعَينيك أديم السما ... وما بها مِن حِكَمة الله

٢٦-ترى بها الأفلاكَ دَوّارة ... شاهدةً بالمُلكِ لله

٢٧-ما وقفتْ مُذ أُجريَتْ لَمْحَة ... - أو دونها - خَوفاً مِن الله

٢٨-وما عليها مِنْ حِسابٍ ولا ... تَخشى الذي يُخشَى من الله

٢٩-وهيَ وما غابَ وما قد بدا ... مِنْ آيةٍ في قبضة الله

٣٠- تُوحّدُ الله على عَرشه ... في غَيْبه فالأمر لله

٣١- وما تَسمّى أحدٌ في السما ... والأرض غَيرُ الله بالله

٣٢-إنّ حمى الله مَنيع فما ... يَقْربُ شَيء مِن حِمَى الله

٣٣-لا شيء في الأفواهِ أحلى من التـ ... ـوحيدِ والتّمجيد لله

٣٤-ولا اطمَأنّ القَلبُ إلاّ لمن ... يَعمُرُه بالذّكْر لله

٣٥- وإنْ رَأى فـــى دينـــهِ شـــبهة ... أمْـــسَك عنهـــا خـــشية الله

٣٦- أو عَرَضَـــتْهُ فاقَـــة أو غنـــى ... لا قاهُمـــا بالـــشُّكرِ لله

٣٧- ومـــن يكـــن فـــى هَديـــهِ هكـــذا ... كـــانَ خَليقـــا برِضـــى الله

٣٨- وكـــانَ فـــى الـــدُّنيا وفـــى قَبْـــرِهِ ... وبَعْـــدَهُ فـــى ذِمَّـــةِ الله

٣٩- وفـــى غَـــدٍ تُبـــصِرهُ آمنـــا ... لِخَوفِـــه اليَـــومَ مِـــنَ الله

٤٠- مـــا أقـــبحَ الـــشَّيخَ إذا مـــا صَـــبا ... وعاقَـــه الْجَهـــل عَـــنِ الله

٤١- وهـــو مِـــن العُمْـــرِ علـــى بـــازِلٍ ... يَحمِلُـــه حَثّـــا إلى الله

٤٢- هَـــلا إذا أشْـــفى رَأى شـــيبَه ... ينعـــاهُ فاســـتحيى مـــن الله

٥٣-كأنَّمـــا رِيـــنَ علـــى قَلْبـــهِ ... فَـــصارَ مَحْجوبـــا عـــن الله

٤٤- مـــا يُعْـــذِر الجاهِـــلُ فـــى جَهْلِـــهِ ... فَـــضْلا عـــن العـــالِمِ بـــالله

٤٥-دارانِ لابُـــدَّ لنـــا مِنهُمـــا ... بالفَـــضْل والعَـــدْلِ مـــن الله

٤٦-ولَـــسْتُ أدْرى مَنْـــزِلى مِنْهُمـــا ... لكِـــنْ توكَّلْـــتُ عَلـــى الله

٤٧-فأعجَـــبْ لِعَبـــدٍ هـــذِهِ حالُـــهُ ... كيـــفَ نَبـــا عَـــنْ طاعـــةِ الله

٤٨-واسَـــوْأتا إنْ خـــابَ ظنـــى غَـــداً ... ولَمْ تَـــسَعْنى رَحمـــة الله

٤٩-وكُنـــتُ فـــى النَّـــار أخـــا شِـــقْوَةٍ ... نَعـــوذُ مِـــنْ ذلـــك بـــالله

٥٠- كـــم سَـــوْءَةٍ مـــستورَةٍ عِنْـــدنا ... يكـــشفها العـــرض علـــى الله

٥١-فـــى مَـــشْهَدٍ فيـــه جميـــعُ الـــوَرَى ... قَـــدْ نَكَّـــسوا الأذقـــان لله

٥٢-وكَـــمْ تَـــرَى مـــن فـــائزٍ فـــيهِمُ ... جَلَّلَـــه سِـــترٌ مِـــنَ الله

٥٣-فالْحَمـــد للهِ علـــى نِعمَـــةِ الـــ ... إسْـــلامِ، ثُـــمَّ الحَمْـــد لله

(٣)

من شعر الرثاء

قال الأعمى التُطيلي يرثى محمد بن حزم :

تـــوَهَّمْ كُـــلَّ شـــيء مـــستحيلا ... وقـــد علمتـــك الـــصبر الجمـــيلا

وهـــل تـــصبو إلى قـــصر مـــشيد ... إذا استـــشعرته طلـــلا محـــيلا

تُـــشَيِّعُ بالبُكـــا مَيْتـــاً فمَيْتـــاً ... فـــلا وأبيـــك مـــا نغنـــى فتـــيلا

وقـــد أفنـــى الحِمَـــامُ الـــدهر نوحـــا ... ولكـــن ســـله هـــل رجـــع الهـــديلا

تظـــن حياتنـــا الـــدنيا مقامـــا ... علـــى أنـــا شـــهدناها رحـــيلا

وهـــل أيامنـــا إلا مطايـــا ... تـــسير بنـــا الوجيـــف أو الـــذميلا

• • •

– ولابن عبدون قصيدة فى رثاء المدن والممالك، يمزج فيها الرثاء بالزهد، يقول :

١– الـــدهر يفجـــع بعـــد العـــين بـــالأثر ... فمـــا البكـــاء علـــى الأشـــباح والـــصور؟

٢–أنهـــاك أنهـــاك لا آلـــوك موعظـــة ... عـــن نومـــة بـــين نـــاب الليـــث والظفـــر

٣–فالـــدهر حـــرب وإن أبـــدى مـــسالمة ... والبـــيض والـــسود مثـــل البـــيض والـــسمر

٤–ولا هـــوادة بـــين الـــرأس تأخـــذه ... يـــد الـــضراب وبـــين الـــصارم الـــذكر

٥–فـــلا تغرنـــك مـــن دنيـــاك نومتهـــا ... فمـــا صـــناعة عينيهـــا ســـوى الـــسهر

٦– مـــا لليـــالى، أقـــال الله عثرتنـــا ... مـــن الليـــالى وخانتهـــا يـــد الغـــير،

٧–فـــى كـــل حـــين لهـــا فـــى كـــل جارحـــة ... منـــا جـــراح وإن زاغـــت عـــن النظـــر

٨– تـــسر بالـــشئ لكـــن كـــى تغـــر بـــه ... كـــالأيم ثـــار إلى الجـــانى مـــن الزهـــر

٩–كـــم دولـــة وليـــت بالنـــصر خـــدمتها ... لم تبـــق منهـــا، وســـل ذكـــراك، مـــن خـــبر

١٠-هـوت بـدارا وفلـت غـرب قاتلـه ... وكـان عـضبا علـى الأمـلاك ذا أثـر

١١-واسترجعت من بنى ساسان ما وهبت ... ولم تـدع لبنـى يونـان مـن أثـر

١٢-وألحقـت أختهـا طـسما، وعـاد علـى ... عـاد وجـرهم منهـا نـاقص المـرر

١٣- ومـا أقالـت ذوى الهيئـات مـن يمـن ... ولا أجـارت ذوى الغايـات مـن مـضر

١٤-ومزقـت سـبأ فـى كـل قاصـية ... فمـا التقـى رائـح مـنهم بمبتكـر

١٥-وأنفـذت فـى كليـب حكمهـا، ورمـت ... مهلـهلاً بـين سمـع الأرض والبـصر

١٦-ولم تـرد علـى الـضليل صـحته ... ولا ثنـت أسـداً عـن ربهـا حجـر

١٧-ودوخـت آل ذبيـان واخـوتهم ... عبـساً، وغـصت بنـى بـدرٍ علـى النهـر

١٨- وألحقـت بعـدى بـالعراق علـى ... يـد ابنـه احمـر العيـنين والـشعر

١٩- وأهلكـت إبرويـزا بابنـه ورمـت ... بيزدجـرد إلى مـرو فلـم يحـر

٢٠- وبلغـت يزدجـرد الـصين واختزلـت ... عنـه سـوى الفـرس جمع الـشرك والخـزر

٢١-ولم تـرد مواضـي رسـتم وقنـا ... ذى حاجـب عنـه سـعدا فـى آبنـة الغـير

٢٢- يـوم القليـب بنـو بـدر فنـوا وسـعى ... قليـب بـدر بمـن فيـه إلى سـقر

٢٣-ومزقـت جعفـرا بـالبيض واختلـست ... مـن غيلـه حمـزة الظـلام للجـزر

٢٤-وأشـرفت بخبيـب فـوق فارعـة ... وألـصقت طلحـة الفيـاض بـالعفر

٢٥-وخـضبت شـيب عثمـان دمـا وخطـت ... إلى الـزبير ولم تـستحي مـن عمـر

٢٦- ولا رعـت لأبـي اليقظـان صـحبته ... ولم تـزوده إلا الـضيح فـى الغمـر

٢٧-وأجـزرت سـيف أشـقاها أبـا حـسن ... وأمكنـت مـن حـسين راحـتي شمـر

٢٨-وليتهـا إذ فـدت عمـراً بخارجـة ... فـدت عليـا بمـن شـاءت مـن البـشر

٢٩-وفـى ابـن هنـد وفـى ابـن المـصطفى حـسن ... أتـت بمعـضلة الألبـاب والفكـر

٣٠-فبعـضنا قاتـل مـا اغتالـه أحـد ... وبعـضنا سـاكت لم يـؤت مـن حـصر

٣١-وأردت ابـن زيـادٍ بالحـسين فلـم ... يبـؤ بشـسع لـه قـد طـاح أو ظفـر

٣٢- وعممت بالظبى فودى أبى أنس ... ولم ترد الردى عنه قنا زفر

٣٣-أنزلت مصعبا من رأس شاهقة ... كانت بها مهجة المختار فى وزر

٣٤- ولم تراقب مكان ابن الزبير ولا ... راعت عياذته بالبيت والحجر

٣٥-وأعملت فى لطيم الجن حيلتها ... واستوسقت لأبي الذبان ذي البخر

٣٦- ولم تدع لأبي لاذبان قاضبه ... ليس اللطيم لها عمرو بمنتصر

٣٧-وأحرقت شلوزيد بعدما احترقت ... عليه وجدا قلوب الآي والسور

٣٨-وأظفرت بالوليد بن اليزيد ولم ... تبق الخلافة بين الكأس والوتر

٣٩-حبابة حب رمان أتيح لها ... وأحمر قطرته نفحة القطر

٤٠-ولم تعد قضب السفاح نائية ... عن رأس مروان أو أشياعه الفجر

٤١-وأسبلت دمعة الروح الأمين على ... دم بفرخ لآل المصطفى هدر

٤٢-وأشرقت جعفرا والفضل ينظره ... والشيخ يحيي بريق الصارم الذكر

٤٣-وأخفرت فى الأمين العهد وانتدبت ... لجعفر بابنه والأعبد الغدر

٤٤-وما وفت بعهود المستعين ولا ... بما تأكد للمعتز من مرر

٤٥-وأوثقت فى عراها كل معتمد ... وأشرقت بقذاها كل مقتدر

٤٦-وروعت كل مأمون ومؤتمن ... وأسلمت كل منصور ومنتصر

٤٧-وأعثرت آل عباد لعا لهم ... بذيل زباء لم تنفر من الذعر

٤٨-بني المظفر والأيام، لا نزلت، ... مراحل، والوري منها على سفر

٤٩-سحقا ليومكم يوما ولا حملت ... بمثله ليلة في غابر العمر

٥٠-من للأسرة، أو من للأعنة، أو ... من للأسنة يهديها إلى الثغر

٥١-من للظبى وعوالي الخط قد عقدت ... أطراف ألسنها بالعي والحصر

٥٢-وطوقت بالمنايا السود بيضهم ... فاعجب لذاك وما منها سوى الذكر

٥٣-من لليراعة أو من للبراعة أو ... من للسماحة أو للنفع والضرر

٥٤- أو دفـــع كارثـــة أو ردع آزفـــة ... أو قمـــع حادثـــة تعيـــا علـــى القـــدر

٥٥-ويـب السماح وويـب البـأس لـو سـلما ... وحـسرة الـدين والـدنيا علـى عمـر

٥٦-سـقت ثـرى الفـضل والعبـاس هاميـة ... تعـزى إلـيهم سماحـاً لا إلى المطـر

٥٧-ثلاثـة مـا أرى الـسعدان مثلـهم ... وأخـبر ولـو عـززرا فـى الحـوت بـالقمر

٥٨-ثلاثـة مـا ارتقـى النـسران حيـث رقـوا ... وكـل مـا طـار مـن نـسر ولم يطـر

٥٩-ثلاثـة كـذوات الـدهر منـذ نـأوا ... عنـى، مـضى الـدهر لم يربـع ولم يحـر

٦٠-ومـر مـن كـل شـئ فيـه أطيبـه ... حتـى التمتـع بالآصـال والبكـر

٦١-ايـن الجـلال الـذى غـضت مهابتـه ... قلوبنـا وعيـون الأنجـم الزهـر

٦٢-أيـن الإبـاء الـذى أرسـوا قواعـده ... علـى دعـائم مـن عـز ومـن ظفـر

٦٣-أيـن الوفـاء الـذى أصـفوا شـرائعه ... فلـم يـرد أحـد منهـا علـى كـدر

٦٤-كـانوا رواسـى أرض الله، منـذ مـضوا ... عنهـا اسـتطارت بمـن فيهـا ولم تقـر

٦٥-كـانوا مـصابيحها فمـذ خبـوا عثـرت ... هـذى الخليقـة يـا لله فـى سـدر

٦٦-كـانوا شـجى الـدهر فاسـتهوتهم خـدع ... منـه بـأحلام عـاد فـى خطـى الحـضر

٦٧-ويـل آمـه مـن طلـوب الثـأر مدركـه ... مـنهم بأسـد سـراة فـى الـوغى صـبر

٦٨-مـن لـي، ولا مـن، بهـم إن أظلمـت نـوب ... ولم يكـن ليلـها يفـضى إلى سـحر

٦٩-مـن لـي، ولا مـن، بهـم إن عطلـت سـنن ... وأخفيـت ألـسن الآثـار والـسير

٧٠-مـن لـي، ولا مـن، بهـم إن أطبقـت محـن ... ولم يكـن وردهـا يـدعو إلى صـدر

٧١-علـى الفـضائل، إلا الـصبر، بعـدهم ... سـلام مرتقـب للأجـر منتظـر

٧٢-يرجـو عـسى ولـه فـى أختهـا أمـل ... والـدهر ذو عقـب شـتى وذو غـير

٧٣-قرطـت آذان مـن فيهـا بفاضـحة ... علـى الحـسان حـصى الياقوت والـدرر

٧٤-سـيارة فـى أقاصـى الأرض قاطعـة ... شـقا شـقا هـدرت فـى البـدو والحـضر

٧٥-مطاعـة الأمـر فـى الألبـاب قاضـية ... مـن المـسامع مـا لم يقـض مـن وطـر

٧٦-ثم الصلاة على المختار سيدنا المصطفى المجتبى المبعوث من مضر
٧٧- والآل والصحب ثم التابعين له ما هب ريح وهل السحب بالمطر

• • •

(٤)

من شعر التحريض

قال الأعمى التطيلي يحرض أهل إشبيلية على رجل عسوف :

١-إلى الله أشكو الذي نحن فيه أسى لا ينهنه منه الأسى
٢- على مثلها فلتشق القلوب مكان الجيوب وإلا فلا
٣-فشا الظلم واغتر أشياعه ولا مستغاث ولا مشتكى
٤-وساد الطغام بتمويههم وهل يفدح الرزء إلا كذا
٥-وطالت خطاهم إلى الترهات ألا قصر الله تلك الخطا
٦-وأعجب كيف نضل السبيل ولم نأته واهتدته القطا
٧-وكيف تضاحك هذي الرياض وكيف يصوب الغمام الحصى
٨-وهيهات لم يعتمد أن يجود ولكن لما نحن فيه بكى
٩-وما نا بحمصٍ من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا
١٠-ونا اليوم حملنا فادحا خضعنا له وانتظرنا غدا
١١-ونفضى علي حكم صرف الزمان وبين الجوانح جمر الغضا
١٢-ويارب إلب على المسلمين زوى الحق عن أهله فانزوى
١٣-هو الكلب أسده جهله وطال فخالوه ليث الشرى

١٤- وراعهم زأره فيهم ... ولو كان في غيرهم ما عوى

١٥-كفاه الهوان احتقار الهوان ... فسن الأذى باحتمال الأذى

١٦-تهاون بالله والمسلمين ... وقد كان في واحد ما كفى

١٧-وقد خلع الدين خلع النجاد ... وقد أكل الدين أكل الربا

١٨- فمرآه في كل عين قذى ... وذكراه في كل حلق شجا

١٩-إذ سئل العسف بالمسلمين ... فأجود من حاتم بالقرى

٢٠- وإن أمكنت منهم فرصة ... فأفتك من خالد بالعدا

٢١-ولابد للحق من دولة ... تميت الضلال وتحيي الهدى

٢٢-فيا سحر فرعون ماذا تقول ... إذا جاء موسى وألقى العصا

٢٣-وقد عز في منع سلطانه ... كليب فكيف رأيت الحمى

٢٤-وإن أمامك لو قد علمت ... أشياء أيسرهن الردى

٢٥- فما غفل الله عن أمة ... ولا ترك الله شيئا سدى

٢٦-وعاقبة الظلم ما قد سمعت ... وعاينت لو نهنهتك النهى

٢٧- أيا أهل حمص وقد ما دعوت ... وهل تسمعون إلى من دعا

٢٨-يقل لأقداركم كل شئ ... فكيف رضيتم بدون الرضى

٢٩- ألا قد لحنت لكم فاسمعوا ... وحاجيت إن كان يغني الحجا

(٥)

شعر الطبيعة

المقطوعة والرؤية الذاتية

ابن خفاجة وابن الزقاق

ابن خفاجة : قال فى مقدمة ديوانه :

الحمد لله الذى عم بفضله، ومن بعدله، وفتق اللسان برحمته، وأنطق الإنسان بحكمته، وسدد فأرشد إلى الإسلام، وعرف بنفسه بين الوحى والإلهام، ووعد وأوعد بتوسط العقول والأفهام، وأطلق بتوحيده وتمجيده ألسنة الأنام، وأسنة الأقلام – حمد معترف بما أولاه وآتاه، مغترف من فيض نعماه ورحماه، معتصم بكفايته من الفتنة فى القول والعمل، مستجير بهدايته من درك الخطإ والخطل. وصلى الله على محمد مصطفاه، ومجتباه، وخيرته من أنبيائه، وصفوته من أوليائه، – صلاة تترادف مع الصباح والمساء، وتستدر أخلاف النعم والآلاء، وتسط كرامة بين النفس والرجاء، وتصل كثرة ما بين الأرض والسماء، وتلحقنى بالملا الأعلى طاعة، وتحسبنى وسيلة وتسعنى شفاعة.

أما بعد، فإنى كنت والشباب يرف غضارة، ويخف بى غرارة، فأقوم طورا وأقعد تارة – قد جنحت إلى الأدب أرتاده مرتعا، وأرده مشرعا. فما تصفحت مثل شعر الرضى، ومهيار الديلمى، وعبد المحسن الصورى، وما حذا حذوه وأخذ مأخذه – حتى تملكنى من تلك المحاسن الرائعة الرائقة، والألفاظ الشفافة الشائقة، ما يناسب برد الشباب رقة، وبرد الشراب ريقة. فما كان إلا أن ملت إليه، وأقبلت عليه، أروقه

وأرويه، وأحاول التشبه بواحد واحد فيه.

أعتقد أن الشعر من خلال الجلة، وحلية النبلاء العليـــة. واتفـــق أن اســـتخدمته شئونى، وجشمته فى بعض الأمكنة شجونى، فألفيته خفيفـــا، علـــى الفـــضلاء لطيفـــا، وشفيعا، عند النبلاء رفيعا، فترقيت فى مرتبة خدمته خلاعة، وترفلت فى العنايـــة بـــه أكلف بها صناعة: [طويل]

عرفـــت هواهـــا قبـــل أن أعـــرف الهـــوى فـــصادف قلبـــى فارغـــا فتمكنـــا

ولما انصدع ليل الشباب عن فجره، ورغب المشيب بنا عن هجره، نزلت عنه / مركبا، وتبدلت به مذهبا، فأضربت عنه برهة من الزمان طويلة، إضراب راغب عنه، زاهد فيه، حتى كأنى ما سامرته جليسا، يشافهنى أنيسا، ولا سايرته أليفـــا، يفـــاوهنى لطيفا، وربما نشأ ذكره أثناء كلام، ودار به مقال فى مقام فعال، نـــستعطف إمـــا مـــن خطرة ببال، أو زورة لمام، أو كره حال، أو بعثة سلام : [وافر]

كأنـــك لم تكـــن إلفـــى وخلـــى ولم أقطـــع بـــك الليـــل الطـــويلا

ولما دخل جزيرة أندلس – وصل الله حمايتها وكفايتها! – الأميـــر الأجـــل أبـــو إسحاق إبراهيم، ابن أمير المسلمين، وناصر الدين – أنهضه الله بما قلده – ومكن أمره وخلده، وأعز نصره وأيده، وبسط بطاعته خطوته ويده!– تعين أن أفـــد عليـــه مهنيـــا بالولاية مسلما، وأغشى بساطه الرفيع موفيا حق الطاعة معظما، فمـــا لبـــث أن رفـــع وأسنى، واصطنع فأدنى، وشفع المبرة فأثنى، وأقلب إقبال رعايـــة وتكرمـــة فـــشرف، واشتمل بوارف ظله وعواطف طله فاكتنف، فارتهننى بره وإجماله، وارتبطنى بـــشره وإقباله، ومن اغتبط ارتبط، ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا.

فعطفت هنالك على نظم القوافى عنانى، وسننتها عند ذلك حللا علـــى معـــاطف

سلطانى، مصطنعا، لا منتجعا، ومستميلاً، لا مستنيلا، اكتفاء بما فى يدى من عطايا منان، وعوارف جواد وهاب، خلق فأبدع، ورزق فتبرع، ثم أتبع الطول طولاً، فوهب سائله، وتقبل وسائله. أحمده بما أسدى، وأرشد وهدى، وحسن من طوية وسريرة، ونور من بصر وبصيرة، أشاهد بذلك ظاهر قدرته، وأدرك بهذه باطن حكمته – حمدا يقتضى الاستزادة من نعمته، والاستدامة لرحمته.

ولما ارتقت بى السن مرتقاها، وشارفت الحياة منتهاها، وتوالت رغبة الإخوان فيه تتجدد، وحرص الأعيان عليه يتأكد، توخيت أن أقصره فى مجلد وأحصره، وأحشره جملة وأنشره. وكان قد باد أو كاد، لدثور رقاع مسوداته، وإخلاق حواشى تعليقاته، واقتضى النظر فيما حاولته أن أتعهده ثانيا تعهد مؤلف، وأتفقده عائدا تفقد متأمل منقف، فمنه ما تعهدته فقيدته، ومنه ما لحظته فلفظته، ومنه ما تصفحته فأصلحته، إما لاستفادة معنى، وإما لاستجادة مبنى. وكان قد شاع كثير منه وذاع، فمن متعلق بنفس، ومن معلق فى طرس. وسيختلف وجوده بما عاودناه من مفتقده ومنتقده، فلا يوجد واحداً، لا من طريق صيغته، ولا من جهة عدده. والشعر، وإن اهتبل به واعتمل فيه، ليس يخلو جيده من سقط، وانقسام إلى طرفين ووسط، فإن الأذهان بأخرة تكل، والمواد من ألفاظ وقواف تقل. وأيضاً، فكل ما ينشأ من أجزاء مؤتلفة، فإنما يتركب من أشياء مختلفة. والشعر يأتلف من معنى ولفظ وعروض وحرف روي، فقد يتعاصى فى بعض الأمكنة جزء من هذه الأجزاء أو أكثر، فطورا ينظم البيت وآونة ينثر، حتى ينتظم بحسب المأمول، أو ينشأ ناقص ماء الحسن والقبول : [طويل]

ومن ذا الدى ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وإن من قولنا ما كنا قد افتتحناه بمنثور، ووشحناه بفقر مزدوجة وشذور. ها نحن قد أوردناه، كما كنا سردناه، ونقلناه، بحسب ما قلناه، تعلقا بحر من النثر يساق خلال

النظم، وينتقل مطالعه عن قسم من الكلام إلى قسم. ولعل ذلك أبسط للنفس وأنشط، وأذهب مع الأنس وأهذب. ومنه ما كان قد انتظم فى عصر الشبيبة، وبطريق الدعابة والطيبة. ولما لم نشر فى معناه إلى نكر، ولم نلم فى ألفاظه بهجر، أثبتناه فى باب الفكاهة والهزل، ولعل لهما موقعا من نفس الفتى الندب والسيد الجزل.

وإنى استرسلت فى إثبات ما صدر عنى من ذلك فى صدر عمرى، ومبتدإ أمرى، استرسال ثقة بإغضاء أهل الفضل، وحملة السيادة والنبل. ولم أحتفل بنقد أقوام، فى مساليخ أنعام، يراعون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا، ولا يعلمون، مع ذلك، أنه يستجاز فى صناعة الشعر، لا فى صناعة النثر، أن يقول القائل فيه "إنى فعلت" و"إنى صنعت"، من غير أن يكون وراء ذلك حقيقة، فإن الشعر مأخذ وطريقة، وإذا كان القصد فيه التخييل، فليس القصد فيه الصدق، ولا يعاب فيه الكذب، ولكل مقام مقال، وهذا السرد من الكلام إنما يتكلم فيه أهله، ومن شأنه عقده وحله.

ثم إنى أعود فأقول : إن نسأ الله فى الأجل، وفسح فى المهل، انتظم هذا الكتاب فى نسق القوافى غير هذا المنتظم، وثبت على ترتيب حروف المعجم.

وإن جميع الكلام، من مرتجل بديهي، ومنقح حولى، متقدما كان سابقاً، أو تاليا لاحقا – مستهدف لمطعن طاعن، إما بوجه صحيح يعقل ويقبل، وإما لخبث سريرة، وضعف بصيرة، وخطوة فى الإدراك قصيرة. ولوجود هذين القسمين الأخيرين، أو وجود أحدهما فى أحد أهل هذا العصر، بذلك المصر، ما بلغنا أنه لا يرى لأحد من حاكة الشعر فى حال من أحواله، وقول من أقواله، إلا أن يتجزل، مدح أو تغزل، وجد أو هزل، ويستهجن فى باب الغزل تلك الطريقة الأنيقة، ويستبرد تلك الألفاظ المرهفة الرقيقة. ولا نعلم : هل ما ينعاه وليس يرضاه، هو فى مثل ما نلم به من طريقة عبد المحسن الصورى تشبها به، كقولنا : [سريع]

يـــا بانـــة تهتـــز فينانـــة ... وروضـــة تـــنفح معطـــارا

لله أعطافـــك مـــن خوطـــة ... وحبـــذا نـــورك نـــوارا

علقـــت طرفـــا فاتنـــا فـــاترا ... فيـــك وغـــرا منـــك غـــرارا

ونـــابلا مـــستوطنا بـــابلا ... نفـــاث لحـــظ العـــين ســـحارا

إذا رنـــا يجرحنـــي طرفـــه ... لحظتـــه أجرحـــه ثـــارا

فيـــصبغ الـــدر عقيقـــا بـــه ... وأصـــبغ النـــوار أزهـــارا

مـــن يلـــق مـــن لا عـــج وجـــد بـــه ... ريحـــا فقـــد لاقيـــت إعـــصارا

تخفـــق أحـــشائي بهـــا دوحـــة ... وتنثـــر الأدمـــع نـــوارا

يـــدير للأعـــين مـــن وجهـــه ... كعبـــة حـــسن حيثمـــا دارا

فلـــي بـــه عـــين مجوســـية ... تعبـــد مـــن وجنتـــه نـــارا

وكقولنا : [طويل]

تعلقتـــه ريـــان مـــن خمـــر ريقـــة ... لـــه رشـــفها دونـــي ولي دونـــه الـــسكر

ترقـــرق مـــاء ملقتـــاي ووجهـــه ... ويـــذكي علـــي قلبـــي ووجنتـــه الجمـــر

فلـــي ولـــه مـــن حـــسنه ومـــدامعي ... علـــي وجهـــه روض وفـــي وجنتـــي نهـــر

ولا عجـــب أن طـــاب نـــشرا وهـــذه ... محاســـنه فـــي غـــصن قامتـــه زهـــر

أرق نـــسيبي فيـــه رقـــة حـــسنه ... فلـــم أدر أي قبلـــتها منهمـــا الـــسحر

وطبنـــا معـــا ثغـــرا وشـــعرا كأنمـــا ... لـــه منطقـــي ثغـــر ولي ثغـــره شـــعر

ومن ذلك : [بسيط مخلع]

يـــا نزهـــة الـــنفس يـــا مناهـــا ... يـــا قـــرة العـــين يـــا كراهـــا

/ أمـــا تـــرى لى رضـــاك أهـــلا ... وهـــذه حـــالتى تراهـــا
فاســـتدرك الفـــضل يـــا أبـــاه ... فـــى رمـــق الـــنفس يـــا أخاهـــا
قـــسوت قلبـــا ولنـــت عطفـــا ... وعفـــت مـــن تمـــرة نواهـــا

ومن ذلك قولنا فى غلام قد بقل عذاره، وإن كان مقولا بطريق الفكاهة، والنادر والدعابة، والشباب يومئذ بريعانه، وسورة سلطانه : [رمل مجزوء]

أيهـــا التائـــه مهـــلا ... ســـاءنى أن تهـــت جهـــلا
هـــل تـــرى فيمـــا تـــرى إلا ... شـــبابا قـــد تـــولى
وغرامـــا قـــد تـــسرى ... وفـــؤادا قـــد تـــسلى
أيـــن دمـــع فيـــك يجـــرى ... أيـــن جنـــب يتقلـــى
أيـــن نفـــس بـــك تهـــذى ... وضـــلوع فيـــك تـــصلى
أى ملـــك كـــان لـــولا ... عـــارضٌ وافـــى فـــولى
وتخلـــى عنـــك إلا ... أســـفا لا يتخلـــى
وانطـــوى الحـــسن فهـــلا ... أجمـــل الحـــسن وهـــلا

أم لعل ذلك، فى بعض ما نحوم عليه، ونحن إليه، من مسلك الموسوى الرضى، كقولنا من قصيدة : [طويل]

ألا ليـــت أنفـــاس الريـــاح النواســـم ... يحـــيين عنـــى الواضـــحات المباســـم
ويلـــثمن مـــا بـــين الكثيـــب إلى الحمـــى ... مـــواطئ أخفـــاف المطـــى الرواســـم
ويـــرمين أكنـــاف العقيـــق بنظـــرة ... تـــردد فـــى تلـــك الربـــى والمعـــالم
فمـــا أنـــسه لا أنـــس يومـــا بـــذى النقـــى ... أطلنـــا بـــه للوجـــد عـــض الأبـــاهم

أما ذلك فى بعض ما نقتفيه ، من طريقة مهيار ونحتذيه، كقولنا : [طويل]

ويـــا بانـــة الـــوادى بمنعـــرج اللـــوى ... أتـــصفى علـــى شـــحط النـــوى فـــأقول

ويـــا نفحـــات الـــريح مـــن بطـــن لعلـــع ... ألا جـــاد مـــن ذاك النـــسيم بخيـــل

ويـــا خـــيم نجـــد دون نجـــد تهامـــة ... ونجـــد ووخـــد للـــسرى وذميـــل

ويـــاريم نجـــد والعـــوادى كـــثيرة ... بحكـــم الليـــالى والوفـــاء قليـــل

ألا رجعـــت تلـــك الـــشمال تحيـــة ... تمـــشت بهـــا عنـــى إليـــك قبـــول

وجـــاذبنى ريـــا العـــرارة ناســـم ... يجـــاذبنى فيـــك النحـــول عليـــل

وهـــل بـــين هاتيـــك الـــتلاع معـــرس ... وفـــى ملتقـــى تلـــك الظـــلال مقيـــل

وهـــل يلتقـــى عنـــدى خيالـــك ليلـــة ... وريـــح بـــبطن الـــواديين بليـــل

أم لعل ما ينعاه وينكره، إنما هو ما نحن نختاره ونؤثره، من ذكر التلدد والتبلد فى الديار نحييها، وتندبها تارة ونبكيها كقولنا : [كامل]

وتلـــددت نحـــو الحمـــى بـــى نظـــرة ... عذريـــة ثنـــت العنـــان إلى الحمـــى

فلويـــت أعنـــاق المطـــى معرجـــا ... ونزلـــت أعتنـــق الأراك مـــسلما

فـــى منـــزل مـــا أوطأتـــه حـــافرا ... عـــرب الجيـــاد ولا المطايـــا منـــسما

دمعـــت بـــه عـــين الغمـــام صـــبابة ... ولربمـــا طـــرب الجـــواد فحمحمـــا

مـــا أذكرتنـــى العهـــد فيـــه أيكـــة ... إلا بكيـــت فنـــال واديهـــا دمـــا

ومـــجعت أنـــدب لوعـــة ولربمـــا ... صـــدح الحمـــام يجيبنـــى فتعلمـــا

ومن ذلك المنزع : [طويل]

وما شاقني إلا حفيف أراكة ... وسجع حمام بالغميم ترنما
أطفت بها أشكو إليها وتشتكى ... وقد ترجم الكاء عنها فأفهما
تحن ودمع الشوق يسجم والندى ... وقر لعيني أن تحن ويسجما
وحسبك من صب بكى وحمامة ... فلم تدر جهلا أى الصب منهما
ولما تراءت لى أثاقى منزل ... أرتنى محيا ذلك الربع أشأما
ترنح بى لذع من الشوق موجع ... نسيت له الصبر الجميل تألما
فأسلمت قلبا بات يهفو به الهوى ... وقلت لدمع العين شأنك فانهمى
وخليت جفنى والدموع هنيهة ... فأفصح سر ما فغرت به فما
/ وعجت المطايا حيث عاج بى الهوى ... فحييت ما بين الكثيب إلى الحمى
وقبلت رسم الدار حبا لأهلها ... ومن لم يجد إلا صعيدا تيمما
فحنت ركابى والهوى يبعث الهوى ... فلم أر فى تيماء إلا متيما

أم ذلك فيما يشوق، ويهز ويروق، من لف الغزل بالحماسة، وهى من أساليب أبى الطيب؟ فمن قولنا فى ذلك : [طويل]

ورب ليال بالغميم أرقتها ... لمرضى جفون بالفرات نيام
ولم أدر ما أشجى وأدعى إلى الهوى ... أخفقة برق أم غناء حمام
إذا ما استخفتنى لها أريحية ... عثرت بذيلى لوعة وظلام
وخضخضت دون الحى أحشاء ليلة ... يخفرنى فيها وميض غمام
فقضيتها ما بين رشفة لوعة ... وأنة شكوى واعتناق غرام
وأحسن ما التفت عليه دجنة ... عناق حبيب عن عناق حسام

ومن ذلك الباب قولنا : [كامل]

وسحبت أردان الظلام على السرى ... طولاً ومزقت الذيول عثارا

ووطئت دون الظبي غابة ضيغم ... غيران أنجد في الوعيد وغارا

فصممت عنه وقد سمعت حمامة ... فاغرورقت عيني لها استعبارا

هززت بهزى نصل سيفي لوعة ... فرفقت حاشية ورق غرارا

وملأت جفني عبرة ولربما ... أبكيته فجرى دما مواراً

ومن ذلك : [كامل]

يغشى رماح اللحظ أول مقبل ... ويكر يوم الحرب آخر مدبر

فتراه بين جراحتين للحظة ... مكسورة ولعامل متكسر

ومن ذلك : [طويل]

وإني لأغشى موقف البين والوغى ... فتندى جفوني عبرة ويدى دما

وإلا فهذا جيب صدرى ممزقا ... بكفي وهذا صدر رمحي محطما

ولكل واحد مأخذ طريف، لطيف، يأخذ بمجامع النفوس، ويطرز حواشي الطروس، وبسط بين الندامى والكؤوس، ويلعب بالأحلام ويرقص بالرؤوس.

وبعد، فلنقل لهذا الناعى علينا ما ذكرناه : جئنا بمقطوعين أو ثلاثة في هذا الأسلوب السخيف، واللفظ المشترك الضعيف، بزعمك. فإن تشبه بمن ذكرناه، واستقل بما سمناه، ثم عدل عنه يختار ما سواه، عد ممن انفرد برأى فائل يراه. ولا محالة أن الشذوذ عن الإجماع، لشذوذ فى الطباع، أو استيلاء وهن، قد غلب على ذهن. فإن كان ليس ممن يركض فى ذلك الميدان، ولا يجرى فى هذا العنان، فلنقل له : [رمل مجزوء]

أيهـــــا العائـــــب ســـــلمى ... أنـــــت عنـــــدى كثعالـــــه
رام عنقـــــــــودا فلمـــــــــا ... أبـــــصر العنقـــــود طالـــــه
قـــــال هـــــذا حـــــامض ... لـــــما رأى ألا ينالـــــه

ولله در الوزير الكاتب الأجل أبى بكر بن عبد العزيز المرخـــى! فمـــا أحـــسن نصفته، وأكرم فى هذا الباب صفته! لقد شهدت له فى نحو من هذا مقاما حمدته، وكلاما استجدته – أمتع الله السيادة بجلاله وشرف خلاله ! – ولعمرى إنها لشيمة كل من كمل فى ذاته، ونبل فى ادواته، وهل يغض ويتنقص، ويبحث عن العثـرات ويفحـص، إلا مزجى البضاعة، فى تلك الصناعة، متخلف، فى تلك البابة متكلف، مسف، فـى تلـك المهنة مسفسف، قد أحس من نفسه بفسول الفهم، وسفول القدم، وعجز عن تسنم تلـك المرقبة، وإحراز تلك المنقبة، فهو يلقط، ما لا يسقط، بين سوء طوية واعتقاد، وتـأخر فى باب الانتقاد، ورجاء تساوى الأقدام فى المراتب، ومطاولة الـرؤوس بالمناكـب، والناس أحد أبصاراً، والحق أعز أنصاراً، ويأبى الله إلا ما أراد؟

وأنا أستغفر الله من لغو الكلام، وأسأله التوفيق لما يحظى بدار الـسلام، وأختـتم القول بتجديد شكره وحمده، وترديد الصلاة والسلام على محمد ورسوله وعبده، وعلى عترته الأطيبين، وأسرته الأكرمين، عدد ما سبح فى فلك، وسبح من ملك.

وقال يتغنى بجمال الأندلس :

يـــــا أهـــــل أنـــــدلس لله دَرُّكـــــم ... مـــــاء وظـــــلٌّ وأنهـــــار وأشـــــجار
مـــا جَنَّـــةُ الخلـــد إلا فـــى ديـــاركُمُ ... وهـــذه كنـــتُ لـــو خُيِّـــرتُ أختـــار
لا تتقـــوا بعـــدها أن تـــدخلوا سَـــقرًا ... فلـــيس تُـــدْخلُ بعـــد الجَنَّـــةِ النـــارُ

وقال يتشوق إلى معاهده بجزيرة شُقْر، ويندب ماضى زمانه :

بـــين شُـــقْرٍ وملتقـــى نَهْرَيْهـــا ... حيـــث ألقـــت بنـــا الأمـــانى عـــصاها

ويُغـــني المُكـــاءُ فـــي شـــاطئيْها ... يـــستخف النهـــى فحلـــت حباهـــا
عيـــشةٌ أقبـــت يُـــشتُهى جناهـــا ... وارف ظلـــها لذيـــذ كراهـــا
لعبـــت بـــالعقول إلا قلـــيلاً ... بـــين تأويبهـــا وبـــين ســـراها
فاثنينـــا مـــع الغـــصون غـــصوناً ... مرحـــا فـــي بطاحهـــا ورباهـــا
ثـــم وَلّـــت كأنهـــا لم تكـــد تلبـــث م إلا عـــشية أوضـــحاها
فانـــدب المـــرج فالكنيـــسةَ فالـــشطّ م وقـــل آه يـــا معيـــد هواهـــا
آهِ مـــن غربـــةٍ تُرَقـــرِقُ بثّـــاً ... آه مـــن رحلـــة تطـــول نواهـــا
آهِ مـــن فرقـــة لغـــير تـــلاق ... آه مـــن دار لا يجيـــب صـــداها
لـــست أدرى ومـــدمع المـــزن رطـــب ... أبكاهـــا صـــبابة أم ســـقاها
فتعـــالى يـــا عـــين نبـــك عليهـــا ... مـــن حيـــاة إن كـــان يُغنـــى بُكاهـــا
وشـــباب قـــد فـــات إلا تناســـيه ... ونفـــس لم يبـــق إلا شـــجاها
مـــا لعينـــى تبكـــى عليهـــا وقلبـــى ... يتمنـــى ســـواده لـــو فـــداها

وقال فى التشوق إلى الأندلس وهو بالعُدوَةِ :

إن للجنـــــة بالأنـــــدلس ... مجتلـــى حـــسن وريـــا نفـــس
فـــسنا صـــبحتها مـــن شـــنب ... ودجـــى ليلتهـــا مـــن لعـــس
فـــإذا مـــا هبـــت الـــريح صـــبا ... صـــحت واشـــوقى إلى الأنـــدلس

وقال يصف البحر :

ولجـــة تفـــرق أو تعـــشق ... فمـــا تنـــى أحـــشاؤها تخفـــق

شـــارفتها وهـــي بمـــا هاجهـــا ... مـــن الـــصبا مزبـــدة تقلـــق
فخلتنـــي فـــي شـــطها فارســـا ... قـــرب منـــه فـــرس أبلـــق

وقال يتغزل :

طـــاف الظـــلام بـــه فأســـرج أدهمـــا ... وســـما الـــسماك لـــه فأشـــرع لهـــذما
وســـرى تطـــير بـــه عقـــاب كاســـر ... باتـــت تلاعـــب مـــن عنـــان أرقمـــا
زحـــم الـــدجى منهـــا بركنـــي هيكـــل ... لـــو كـــان زاحـــم شـــاهقا لتهـــدما
فـــي ســـدفة تنـــدى دجاهـــا صـــفحة ... وتطيـــب ريـــا ريحهـــا متنـــسما
فتكـــاد ريقـــة طلـــها أن تجتنـــي ... رشـــفا ومبـــسم برقهـــا أن يلثمـــا
مـــن ليلـــة غنيـــت فيهـــا أنثنـــي ... طربـــا وســـاعدني المطـــي فأرزمـــا
وســـرى الهـــلال يـــدب فيهـــا عقربـــا ... وانـــساب منعطـــف المجـــرة أرقمـــا
وتلـــددت نحـــو الحمـــي بـــي نظـــرة ... عذريـــة ثنـــت العنـــان إلى الحمـــى
فلويـــت أعنـــاق المطـــي معرجـــا ... ونزلـــت أعتنـــق الأراك مـــسلما
متنـــسما نفـــس القبـــول وربمـــا ... أورى زنـــاد الـــشوق أن أتنـــسما
فأســـلت أحـــساء الـــدموع علاقـــة ... ولويـــت أحنـــاء الـــضلوع تألمـــا
فـــي منـــزل مـــا أوطأتـــه حـــافرا ... عـــرب الجيـــاد ولا المطايـــا منـــسما
أكرمتـــه عـــن أن يـــذال بوطـــأة ... ولثلـــه مـــن منـــزل أن يكرمـــا
دمعـــت بـــه عـــين الغمـــام صـــبابة ... ولربمـــا طـــرب الجـــواد فحمحمـــا
مـــا أذكرتنـــي العهـــد فيـــه أيكـــة ... إلا بكيـــت فـــسال واديهـــا دمـــا
وســـجعت أنـــدب لوعـــة ولربمـــا ... صـــدح الحمـــا يجيبنـــي فتعلمـــا

قوله فى هذه القصيدة :

"ونزلت أعتنق الأراك مسلما"

ينظر إلى قول أبى الطيب المتنبى :

نزلنـــا عـــن الأكـــوار نمـــشى كرامـــة لـــن بـــان عنـــه أن نلـــم بـــه ركبـــا

والقسم الآخر من هذا البيت من الكلام الموجز – وهو تضمين جميع معنى قول أبى الطيب فى بيان المعنى بقوله "نزلت مسلما" – غنى بالإشارة عن العبارة. وهل نزل مسلماً إلا إجلالا للديار، وتكرمة للرسوم والآثار؟ ثم إنه لما مشى فى قـصيدته شـيئاً، عطف بنحوه، وأتى ببيتين" مع زيادة وإفادة، وهما قوله :

فـــى منـــزل مـــا أوطأتـــه حـــافرا عـــرب الجيـــاد ولا المطايـــا منـــسما

أكرمتـــــه عـــــن أن يـــــذال بوطـــــأة ولمثلـــــه مـــــن منـــــزل أن يكرمـــــا

فجمع بين المراكب من خيل وإبل. ولما فرغ من المعنى فى صدر البيت الثانى، تممه بقوله :

"ولمثله من منزل أن يكرما"

فإنه قد يكرم غير كريم، ويجل غير جليل.

وفى بيت المتنبى لفظة تغض من شرفه، وهى لفظة "من". وهى ها هنا مستجفاة، لا مستحلاة. ولو أنه قال :

نزلنـــا عـــن الأكـــوار نمـــشى كرامـــة لأهليـــه أن نغـــشى رســـومهم ركبـــا

لجاء البيت أنم جلالة وجزالة، لكن أبا الطيب إنما كان يهتبل بالمعانى ولا يبالى بالألفاظ. وربما قال قائل : للفظة "بان" معنى فى البيت. فيقال له : إن لفظة "الرســوم"

تعطى ما تعطيه لفظة "بان" من إقواء المنزل، فاللفظان متساويان هنا. وربما أنكر علينا منكر ما أوردناه فى لفظة "من"، إما لاعتياده إنشاد البيت حسب ما وقع حتى ألفته نفسه وطبعه، واستساغه لسانه وسمعه، وإما لجساوة فى حسه، وغباوة فى نفسه، وذلك ما ليس فى رفع أوده من أمل، ولا عمل. والدليل على ما ذكرناه فى لفظة "من" ، أنك تجد قولك "لقيت من ضرب زبداً" ينزل عن قولك "لقيت الذى ضرب زيداً"، وقولك "لقيت الذى ضرب زيداً" ينزل عن قولك "لقيت ضارب زيد". وكل ذلك إنما ينزل فى النفس عن مرتبة الجلالة "لا" عن المعنى.

وربما حمل علينا حامل فقال : إن هذا الرجل يتعاطى رتبة فى الشعر فوق رتبة المُتَنَبِّى. وليس الأمر كذلك، لأنه لم يعترضه فى جملة شعره، وإنما اعترضه فى لفظة، وهذا ليس بمستنكر ولا بمستكبر.

وقال يستقصر يوم أنس، ويصف عشية :

ألا رب يوم حثت الكأس خطوه ... فطار وأيام السرور قصار

عثرت بذيل السكر فيه عشية ... وللريح فى موج الخليج عثار

وقد فضض النوار كل رباوة ... وسال عليها للأصيل نضار

وقال يصف عشية يوم أنس :

وعشى أنس أضجعتنى نشوة ... فيه تمهد مضجعى وتدمث

خلعت على به الأراكة ظلها ... والغصن يصفى والحمام يحدث

والشمس تجنح للغروب مريضة ... والرعد يرقى والغمامة تنفث

وقال يصف يوم أنس :

سقيا ليوم قد أنحت بسرحة ... ريا تلاعبها الرياح فتلعب

سكرى يغنيها الحمام فتنثني ... طربا ويسقيها الغمام فتشرب

نلهو فترفع للشبيبة راية ... فيه ويسرج للتصابى مركب

مازال ينعطف الخليج مجرة ... فيه ويطلع للسلافة كوكب

ويكر من كأس المدامة أشقر ... يجرى ويصدر للزجاجة أشهب

والروض وجه أزهر والظل فر ... ع أسود والماء ثغر أشنب

حيث التقى نفس الخزامى والصبا ... وشدا يغنينا الحمام المطرب

واهتز عطف الغصن من طرب بنا ... وافتر عن ثغر الهلال المغرب

فكأنه والغيم ثوب أدكن ... طوق على برد الغمامة مذهب

ثم انقضى من يوم أنس فانطوى ... فعلى معاهده السلام الأطيب

إكثار هذا الرجل فى شعره من وصف زهرة،ونعت شجرة وجربة ماء، ورنة طائر، ما هو إلا لأنه كان جانحا إلى هذه الموصوفات لطبيعة فطر عليها وجبلة، وإما لأن الجزيرة كانت داره، ومنشأه وقراره، وحسبك من ماء سائح، وطير صادح، وبطاح عريضة، وأرض أريضة، فلم يعدم هنالك، من ذلك، ما يبعث مع الساعات أنسه، ويحرك إلى القول نفسه، حتى غلب عليه حب ذلك الأمر، فصار قوله فيه عن كلف، لا تكلف، مع اقتناع، قام مقام اتساع، فأغناه عن تبذل وانتجاع.

ابن الزقاق

قال فى وصف الرياض :

وريـــاض مـــن الـــشقائق أضـــحت ... يتهـــادى فيهـــا نـــسيم الريـــاح
زرتهـــا والغمـــام يجلـــد منهـــا ... زهـــرات تـــروق لـــون الـــراح
قلـــت مـــا ذنبهـــا ؟ فقـــال مجيبـــا ... ســـرقت حمـــرة الخـــدود المـــلاح

وقال فى الغزل :

ومفتـــان قتـــول الـــدل وســـنى ... يجـــاذب خـــصرها ردف رداح
ســـرت إذ نامـــت الرقبـــاء نحـــوي ... ومـــسك الليـــل تهديـــه الريـــاح
وقـــد غنـــى الحلـــى علـــى طلاهـــا ... بوســـواس فجاوبـــه الوشـــاح
تحـــاذر مـــن عمـــود الـــصبح نـــورا ... مخافـــة أن يلـــم بنـــا افتـــضاح
فلـــم أر قبلـــها والليـــل داج ... صـــباحا بـــات يـــذعره صـــباح

وقال أيضا :

وآنـــسة زارت مـــع الليـــل مـــضجعى ... فعانقـــت غـــصن البـــان منهـــا إلى الفجـــر
أســـائلها أيـــن الوشـــاح وقـــد غـــدت ... معطلـــة منـــه معطـــرة النـــشر
فقالـــت وأومـــت للـــسوار نقلتـــه ... إلى معـــصمى لـــا تقلقـــل فـــى خـــصري

* * *

ومن شعر الأسرة عنده، قوله فى حب البنين :

خليلـــى مـــا حـــب البـــنين ببدعـــة ... فهـــل أنتمـــا فيـــه مقيمـــان مـــن عـــذرِ

تقـــسم قلبـــى بـــين طفلـــين شـــطره ... لهـــذا، وهـــذا قـــد تعلـــق بالـــشطر

صـــغيرين لم تـــصفر حيـــاتى عليهمـــا ... ولا كـــان حظـــي باليـــسير ولا النـــزر

فمـــن قائـــل آثـــرت ســـرا محمـــدا ... وآخـــر إبـــراهيم تـــؤثر فـــى الـــسر

فقلـــت : همـــا غـــصنان أعـــدل فيهمـــا ... إذا جـــار ذو الـــنجلين، عـــدل نـــدى القطـــر

ومـــا اســـتويا ســـنا ولكـــن تـــساويا ... ولوعـــا وحبـــا فـــى الجـــوانح والـــصدر

محلـــهما فـــى منـــزل القلـــب واحـــدٌ ... فحيـــث أبـــو بكـــر فـــثم أبـــو عمـــرو

أحـــب صـــلاح الـــدهر فـــى جانبيهمـــا ... ولولاهمـــا مـــا كنـــت أحفـــل بالـــدهر

فمـــن كـــان يبغـــى العمـــر مـــستمتعاً بـــه ... فـــلا أبـــغ إلا فـــى صـــلاحهما عمـــرى

ومن الظواهر الفنية:

رثاء المدن

ويدخل فى باب الرثاء والزهد الذى سبق الحديث عنه فن أندلسى جديد فرضته أحداث التاريخ – وعلاقة أدب الأندلس بتلك الأحداث أظهر منه فى أدب آخر–، وهذا الفن هو رثاء المدن، وقد اختلط فى هذا الفن الرثاء والزهد والحكمة والفلسفة والدين معا لتصوير مشهد مأساوى هو مسلسل سقوط المدن الأندلسية فى يد العدو الشمالى الإسبانى، وهو مشهد أليم للغاية لقوم، انتقلوا من العز "بالأمس كانوا ملوكا فى منازلهم" واليوم :

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يا ربَّ أمّ وطفل حيل بينهما ... كما تفرّق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت ... كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان في القلب إسلام وإيمان

مشهد بالغ الحزن ألهم الشاعر تعبيره الفريد "واستهوتك أحزان"! وهو مشهد متكرر يخضع لقانون الغزو فى العصور الوسطى، حيث تتحول النساء -ولاسيما الشابات- إلى جوارى فى أسواق العدو أو إلى ملكية لكل علج (لقب أطلق على جنود الإفرنجة) يعتدى على شرفها كحق من حقوقه، ويطرد الشيوخ من النساء والرجال أو يقتلون، أما الأطفال فيعزلون عن أسرهم، ويحملونهم لتربيتهم فى بيوت مسيحية أو لتحويلهم لجنود فى المستقبل يقتلون ذويهم على نحو ما صور ذلك ابن العسال يصف ما أصاب بربشتر حين غزاها النصارى سنة ٤٥٦

ولقد رمانا المشركون بأسهم ... لم تخط لكن شأنها الصماء
هتكوا بخيلهم قصور حريمها ... لم يبق لا جبل ولا بطحاء
جاسوا خلال ديارهم فلهم بها ... فى كل يوم غارة شعواء
باتت قلوب المسلمين برعبهم ... فُحماتُنا فى حربهم جبناء
كم موضع غنموه لم يُرْحَم به ... طفل ولا شيخ ولا عذراء
ولكم رضيع فرقوا من أمه ... فله إليها ضجة وبغاء

ولـــرب مولـــود أبـــوه مجـــدل ... فـــوق الـــتراب وفرشـــه البيـــداء
ومـــصونة فـــي خـــدرها محجوبـــة ... قـــد أبرزوهـــا مـــا لهـــا اســـتخفاء
وعزيـــز قـــوم صـــار فـــي أيـــديهم ... فعليـــه بعـــد العـــزة اســـتخذاء

لقد أحسن الشاعر الأندلسي تصوير المشهد المتكرر لتوالي سقوط المدن :

دهـــى الجزيـــرة أمـــر لا عـــزاء لـــه ... هـــوى لـــه أُحُـــدٌ وانهـــدَّ ثهـــلان
فاســـأل بلنـــسيةً مـــا شـــأن مرســـية ... وأيـــن شـــاطبة، بـــل أيـــن جيـــان
وأيـــن قرطبـــة دار العلـــوم، فكـــم ... مـــن عـــالم قـــد سمـــا فيهـــا لـــه شـــان
وأيـــن حمـــصٌ ومـــا تحويـــه مـــن نـــزه ... ونهرهـــا العـــذب فيّـــاضٌ ومـــلآن
قواعـــد كـــن أركـــان الـــبلاد، فمـــا ... عـــسى البقـــاء إذا لم تبـــق أركـــان

نعم، إن سقوط المدن الكبرى وآخرها هنا حمص (إشبيلية) بعد قرطبة، هو سقوط لأركان الأندلس التي ظن أهلها بها الكمال، وأنهم قادرون عليها. ومن هنا يدخل رثـاء المدن منطقة الزهد (كل من عليها فان)، ومنطقة التفلسف والحكمـة حيـث تـستخرج القصيدة قوانين كونية للتاريخ ربما تصدق على العصور الوسطى بالفعل، ومن هنا كان مطلع القصيدة التي استخرجنا منها الأبيات السابقة، والتي نالت شـهرة كبـرى هـي وكاتبها الرُندي:

لكـــل شـــئ إذا مـــا تم نقـــصان ... فـــلا يغـــرّ بطيـــب العـــيش إنـــسان
هـــي الأمـــور كمـــا شـــاهدتها دُوَلٌ ... مـــن ســـرّه زمـــن ســـاءته أزمـــان
وهـــذه الـــدار لا تبقـــي علـــى أحـــد ... ولا يـــدوم علـــى حـــالٍ لهـــا شـــان
يمـــزّق الـــدهر حتمـــا كـــلَّ ســـابغةٍ ... إذا بنـــت مـــشرفيّات وخرصـــان

وينتضي كل سيف للفناء ولو ... كان ابن ذى يزن والغمد غمدان

أين الملوك ذوو التيجان من يمنٍ ... وأين منهم أكاليل وتيجان

ويستمر الشاعر فى تأمل الدول الآفلة عبر التاريخ :

أتى على الكل أمر لا مرد له ... حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

وصار ما كان من مُلْكٍ ومن مَلِكٍ ... كما حكى عن خيال الطيف وسنان

دار الزمان على دارا وقاتله ... وأمّ كسرى فما أواه إيوان

فجائع الدهر أنواعٌ منوّعة ... وللزمان مسرات وأحْزانُ

ولكن :

وللحوادث سلوان يُسَهِّلُها ... وما لما حل بالإسلام سلوان

وهنا تنطلق الموعظة الدينية :

يا غافلا وله من الدهر موعظة ... إن كنت فى سِنَةٍ فالدهر يقظان

وما شيأً مرحًا يلهيه موطنه ... أبعد حمص تغر المرء أوطان

وتوقظ الموعظة الدينية حلم أن ينفر المسلمون ما وراء حدود الأندلس للجهاد :

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة ... كأنها فى مجال السبق عقبان

وحاملين سيوف الهند مرهفة ... كأنها فى ظلام النقع نيران

وراتعين وراء البحر في دَعَةٍ لهم بأوطانهم عزٌّ وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركبان

وهكذا تتضمن قصيدة رثاء المدن قوانين التاريخ ممزوجة بقوانين القدر بجانب وصف المشهد الأليم وذكر أبناء السقوط والاستنجاد، ومن ثمّ يدخل فى باب رثاء المدن قصائد الاستنجاد الشعرية (وأيضا مئات من الرسائل النثرية التى تتضمن الدلات الشعرية للقصائد)، ومن هذا النوع من القصائد تشتهر قصيدة الكاتب والشاعر البارز أبى عبد الله بن الأبّار، التى ألقاها بين يدى صاحب أفريقية أبى زكريا بن أبى حفص، مستغيثا به لإنقاذ بلنسية التى تعاور حكمها المسيحيون والمسلمون إلى أن حاصرها ملك برشلونة المسيحى، ولأن مشكلة بلنسية تعانيها كل مدن الأندلس ، فالاستغاثة تعم الجميع:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
في كل شارقة إلمام بائقة يعود مأتمها عند العدى عرسا
وكل غاربة إجحاف نائبة تثنى الأمان حذارا والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفي بلنسية منها وقرطبة ما ينسف النفس أو ينزف النُّفَسَا